

الوضع الديني في الجزائر العثمانية بمذكرات جون فوس 1798م

- قريش بلقاسم
- جامعة أم البواقي - الجزائر.
- kerbechb@gmail.com

تاريخ القبول: 2018-07-08

تاريخ الارسال : 2018-06-26

الملخص: أيقن السياسيون الأمريكيون أن الحاجة أصبحت ملحة أمام أمتهم الناشئة لإنتاج "تاريخ فلكلوري" يؤسسها فكريا، فقبل هذا كانوا قد أوجدوا عدوا سياسيا تمثّل في بريطانيا -قبل سنة 1776- ، وأخيرا قرر الساسة أن تكون شمال إفريقيا المنطقة المناسبة لتأسيس منظور فكري جديد خارج النطاق الأوربي؛ خاصة وأن بها العديد من الأسرى الأمريكيين. نشر فوس روايته عن يومياته بالجزائر كأسير سنة 1796م، وأمام الوضع العام طالبه الكونغرس بالتحضير لإصدار طبعة ثانية منقحة يتحدث فيها بشكل دقيق عن الأوضاع الثقافية والدينية بالجزائر، فظهرت الطبعة الثانية سنة 1798م، وتعتبر رواية فوس أول رواية لأمريكا المستقلة تفصل أحداث الأسر بشمال إفريقيا.

الكلمات المفتاحية: الجزائر ، أمريكا ، العثمانية ، فرنسا ، الأسرى ، الصراع المسيحي الإسلامي

The Religious Situation in Ottoman Algeria in the Memoirs of John Foss 1798

Astract: American politicians realized that their emerging nation had an urgent need to produce a "folkloric history" for its intellectuality establishment, after taking Britain as a political enemy, before 1776. Politicians finally decided that North Africa would be the right place to establish a new intellectual perspective outside the European extent, particularly, due to the existence of many American captives.

'Foss' published a novel about his diary in Algeria as a captive in 1796, and before the general situation in which the Congress commanded to prepare for a second revised edition to discuss the cultural and religious situation in Algeria while the second edition appeared in 1798. Foss's novel is considered to be the first novel launched by the independent America, that demonstrates the events of captivity in North Africa.

Key words: Algeria, America, Ottoman, France, prisoners, Christian-Islamic conflict

أيقن السياسيون الأمريكيون أن الحاجة أصبحت ملحة أمام أمتهم الناشئة لإنتاج "تاريخ فلكلوري" يؤسسها فكريا، فقبل هذا كانوا قد أوجدوا عدوا سياسيا تمثل في بريطانيا -قبل سنة 1776-، وأخيرا قرر الساسة أن تكون شمال إفريقيا المنطقة المناسبة لتأسيس منظور فكري جديد خارج النطاق الأوربي؛ خاصة وأن بها العديد من الأسرى الأمريكيين.

لم يشذ الأمريكيون كثيرا عن المدرسة الأوربية في تناول "الإسلام والمسلمين" ورغم أنهم كانوا قبل استقلالهم النهائي معجبين بما يسمونه "قراصنة البربر" إلا أنهم بعد الإستقلال النهائي سنة 1786م بدؤوا في رسم كتاباتهم الخاصة لكن بالنمطية الأوربية الأم، وبهذا استمر المسلم محورا "لقوى الظلام".

نُقلت الكثير من الأعمال المسرحية التي راجت في لندن أواسط القرن السابع عشر بحيث "تصوّر المسلم كعدو أذلي وجاء لك واضحا ذلك في عمل جون مارستون مأساة سوفونيسبا"⁽¹⁾ وكذلك في أعمال شيكسبير، دابرون وكسينجر.

1- الأعمال الأمريكية الأولى عن شمال إفريقيا 1783 - 1815:

أمام المتطلّبات الجديدة تدخل الكونغرس شخصا لخلق تاريخ أمريكي تراكمي "Accumilative History" مستقلّ عن بريطانيا المستعمرة، يكون فاتحة لعهد جديد من الكتابات الأمريكية، عبّر عنها إدوارد هال في كتابه "اللغة الصامتة" (1905) بمصطلح "الصدمة الثقافية"⁽²⁾ ذلك أن الأسرى الذين عاشوا في شمال إفريقيا ليسوا سوى نموذج من هذه الثقافة التي اصطدمت بثقافة مغايرة لثقافتها خلقت نوعا جديدا من الكتابة بنيّ على فلسفة "الرفض للآخر". ولهذه الغاية "النبيلة" كما نعتها الكونغرس شُجعت الكتابات التي "تسيء للإسلام والمسلمين".

إن المستعمرة البريطانية وفيما بعد الولايات المتحدة الأمريكية، ورثت قرون الصراع الأيديولوجي المسيحي-الاسلامي. وجاءت المعركة لتعكس بقوة صراعا اقتصاديا على التجارة وحقوق الملاحة عرفت فيما سبق بأروبا كصراع بين فرسان المسيحية و"القراصنة" المسلمين؛ بحيث أن كلا

الطرفين أعطوا شرعية لاستعباد مواطني الطرف الآخر. "استمر الكتاب الأمريكيون في دعم الدعاية ضد الاسلام والمسلمين؛ حيث استخدموا مصطلحات سابقة استخدمها الكتاب الأوروبيون، ففي عضبة ألقاها مثار كوتن (Cotton Mather)⁽³⁾ حول عبودية الأمريكيين في شمال إفريقيا، وصف كوتن ملاك العبيد بـ "وحوش إفريقيا" و"قوى الظلام" للتعبير عن همجية المسلمين، وجسد سكان المغرب في صورة شياطين غير إنسانية"⁽⁴⁾.

كان هناك هدفان وراء إلحاح الكونغرس على دعم مثل هذه الكتابات: أولاً صناعة فكر أمريكي مستقل يقوم على خلق مخيال يبرز فكرة "أمة المعاناة الأمريكية" بمادة خبرية أمريكية، ثانياً إعادة تشكيل الرأي العام الأمريكي وإبعاده عن التركيز مع المشاكل الحقيقية التي كانت تتخبط فيها الأمة الناشئة داخلياً، وهذا من خلال توجيه الرأي العام للتركيز على ما كان يحدث في العالم القديم.

كتب الأمريكيون نوعان من روايات الأسرى تعود الأولى لأولئك الأمريكيين الذين أخذهم الهنود الحمر، أما الصنف الثاني فذلك الذي تعلق بالأسرى الذين وجدوا بشمال إفريقيا، وجمعت كل الروايات القديمة التي تدين المسلمين بداية من القرن السابع عشر وأعيد نشرها مرات ومرات لتجوب الولايات الأمريكية.

إحدى أولى الروايات التي ظهرت في أمريكا تعود إلى براون جوشوا الذي أسر بالمغرب ونشرت روايته سنة 1655م، ولم يختلف براون في طرحه عن السياق التاريخي Context History الذي طرحه الأوروبيون قبله، فكتب "لقد أهنت أيما إهانة من أسوء رجل مقزز في العالم -يقصد أسره المغربي-".⁽⁵⁾ وخلال فترة أسر براون أخذ أبوه أسيراً إلى الجزائر.

بعد عودة جوشوا من الجزائر سنة 1688، ومن المدينة الألمانية، بنسلفانيا، كتب جماعة الأصدقاء الكويكر أول عريضة احتجاج لهم ضد العبودية حيث ناشدوا "بالتبرع للعبيد المجودين في يد الأتراك"، وفرضوا تحرير كل العبيد السود الذين هم ملك لأتباعهم "الآن، على الرغم من أنهم سود، لا يمكن أن نفهم أننا أحرار في جعلهم عبيداً، ويجب أن نساوي بينهم وبين البيض؛

وهناك قول مأثور يذكرنا بأن كل الناس متساوون، دون التفكير في اختلاف الجنس، الأصل أو اللون".⁽⁶⁾

اقتيد جيمس ريلي مع طاقمه إلى الصحراء بعد أن تحطمت سفينته بالقرب من السواحل المغربية سنة 1815م ونشرت لأول مرة سنة 1817م. وطبعت روايته أكثر من 28 مرة، كما صدرت منها نسخة منقحة ومصورة موجهة للأطفال، ولا تزال الرواية تصدر حتى الآن، وطبعت منها أكثر من مليون نسخة؛ وحتى الشاب إبراهيم لينكولن رئيس الولايات المتحدة الأمريكية كان يملك نسخة أصلية من الكتاب⁽⁷⁾، وكان يضعه في صف واحد مع الكتاب المقدس، وكأحد أكثر الكتب التي أثرت في تفكيره السياسي.

2- جون فوس بالجزائر 1593م:

لم يكن الخوف وحده من دفع الأسرى لنشر رواياتهم ذلك أنّ الجانب الأناني –المادي- كان ذا دور بارز في انتشار مثل هذه الروايات؛ فأمام تزايد الطلب على أعمال الأسرى أصبح الأمر مربحا بالنسبة لدور النشر والزاوي، يضاف إلى هذا السمعة الطيبة التي كانت تطل صاحبا؛ "فبعد عودته إلى الديار؛ استمرّ براون أبراهام بالإخبار أنه لم يتخلّى عن مسيحيته أمام إغراءات المسلمين، وتزوج في بوسطن من ابنة تاجر غني".⁽⁸⁾

نشر فوس روايته عن يومياته بالجزائر كأسير سنة 1796م، وأمام الوضع العام طالبه الكونغرس بالتحضير لإصدار طبعة ثانية منقحة يتحدث فيها بشكل دقيق عن الأوضاع الثقافية والدينية بالجزائر، فظهرت الطبعة الثانية سنة 1798م⁽⁹⁾، وتعتبر رواية فوس أول راية لأمريكا المستقلة تفصّل أحداث الأسر بشمال إفريقيا.

وأمام رغبة الكونغرس ومباركته "رأى فوس أن العمل "ذكرى لأولئك الأمريكيين الذين يعانون في الجزائر تحت نير العبودية" حسبه، وأن "الأمريكيين سيلقون فائدة كبيرة إن هم اطلعوا على العمل، فاحتمالية تعرضهم للأسر كبيرة فيمكن أن يجدوا أنفسهم في يوم من الأيام محاطين بالأغلال في مدينة الجزائر" ويواصل فوس مدافعا عن عمله: "فمعرفة –الأمريكيين- تقاليد

وسلوكيات المنطقة (الجزائر) وحدها قد لا تكون مفيدة... بقدر الإطلاع على تجربتي كأسير في المدينة".⁽¹⁰⁾

حاول فوس دائما الربط بين تجربته كأسير في الجزائر وما يحدث مع الأمريكيين في المناطق التي تخضع للهنود الحمر معطيا نفس القدر من الهمجية التي رآها في الهنود الحمر، ليرسم نموذجا يحاول فيه تحديد "الشر" الكامن في المسلم الجزائري - خاصة - معبرا عن ذلك بقوله: "يمكن أن يكون شكلهم عاديا؛ لكن ملابسهم ولحاهم تجعلهم كوحوش"⁽¹¹⁾.

تصور رواية فوس "الإسلام كدين دموي"⁽¹²⁾ يؤثر على معتنقيه سلبا؛ فبالنسبة له ليس بحارة الجزائر إلا "ذئابا تقدمت نحوه لتلتهمه"⁽¹³⁾.

1-2- العقوبات:

تعتبر أكثر العقوبات رواجاً بين الجزائريين "الفلقة Bastindo"، "فبعد أن حاول مجموعة أسرى أوربيين الهروب من المدينة، وألقي القبض عليهم تمّ جلهم أمام الداي الذي أمر بإعدام قائد السفينة... وتعريض الباقي للفلقة حيث يتلقى كل شخص خمسمائة جلدة..."⁽¹⁴⁾ وحسب فوس فإن من العقوبات ما تفرض أن يحرق صاحبها أو يشوى حيّاً... أو يوضع على عصا حديدية حادة إلى أن تخترق عنقه، وإذا ما وجد مسيحي مع امرأة "مسلمة" فإنه يعدم مباشرة وتوضع المرأة في صندوق وترمى في البحر، وإذا اشتبه في أحدهم فإن الرجل يتم إخصاؤه أما المرأة فتجلد، وإذا قتل "أسير أسيرا آخر" فإنه يعدم، أما إذا قتل مسلما فإنه يرمى من على جدار عال ليقع في الأسفل فوق قطع حديديه وضعت خصيصا للعقوبة، أو يعلّق على قطع حديدية أعلى القلعة لعدة أيام...

"ويحرق حيّاً" حسب فوس كل من يتعرض بألفاظ سيئة عن الديانة الإسلامية Mahometan ويعاقب بنفس الطريقة من ضرب "مسلم" Turk. "ففي أبريل 1794 حدث أن تعب جوزيف كيت وبيتر باري فتوجها نحو إحدى المنابع ليتزودا بالمياه ويستلقيا مدة خمس دقائق على العشب المحيط بالبقعة، لكن الحارس اكتشف أمرهما وجلدا مائة جلدة لكل واحد منهما، وفي

حدث آخر "أوت 1794" جلد أحد الأسرى لأنه انتزع ستة شعرات من ذيل خيل يعود لأحد أغنياء مدينة الجزائر.

ويحكي لنا "فوس" قصة أسير من وهران -مارس 1795- أعلم أن أحد القساوسة قدم لافتداء الأسرى الإسبان وهو حاليا متواجد بمدينة الجزائر، انتقل الأسير إلى مدينة الجزائر وسأل القس إن كان الأسرى الإسبان معنيون بالفدية، فأجابه بالسلب فما كان من الأسير إلا أن طعنه عدة طعنات بالخنجر، ليتركه ملقى على الأرض وسط دمائه. توجه بعدها نحو القنصلية الإسبانية محاولا قتل القنصل الإسباني لكنه فشل ذلك أن القنصل كان محاطا بحرسه، هرب الأسير بعدها نحو البانيو -السجن- وألقى خنجره على الأرض، ليقطع رأسه مساء كعقوبة عن أفعاله.

وكنتيجة لما كتبه عن العقوبات التي تمسّ الأسرى رأى مستنتجا أن "المرء ليعتقد وهو أسير بين الجزائريين أنه يتصفح تسجيلات من الجحيم"; إن النظرة السابقة لم تكن جديدة في عمل فوس ذلك أن الأسرى الأوروبيين كانوا قد خلقوا كتابات تراكمية في هذه الشاكلة Accumulative researches تصور المسلم كمخلوق متوحش بالفطرة.

وعندما يتعلق الأمر بالمسلمين فإن العقوبات تختلف، فالبنسبة للأتراك فإنهم يجلدون في الغالب نتيجة أخطائهم غير الجسيمة؛ أما الجزائريون والعرب فجرائمهم الكبيرة يرمون لأجلها من الأعلى ليسقطوا فوق قطع حديدية حادة؛ أو يعلقون في جدران عالية بعد أن تخترق أكتافهم قضبان حديدية أو يعدمون؛ وعند اقترافهم أخطاء صغيرة فإنهم في الغالب يستعبدون كالأسرى الأوروبيين. وفي حالة تم الإمساك بسارق تقطع يده اليمنى... ويجبر بعدها على الركوب فوق حمار بشكل مقلوب بحيث يكون متجها نحو مؤخرة الحمار، ويجوب المدينة عدة مرّات ويده المقطوعة معلقة على عنقه.

ويصبح أي تركي أجرم محميا بمجرد أن يدخل زاوية أحد المرابطين أو يعاقب عقوبة صغيرة. ولا يسمح لأي يهودي أن يدافع عن نفسه حسب فوس وفي حالة فعل ذلك فإن يده تقطع، ويواصل مؤكدا أن "اليهود كانوا يمنعون من ارتداء لباس غير الأسود".

وتكون عقوبة المهتمدين في الغالب مشابهة لتلك التي يعاقب بها الأتراك. لكن لو صادف وكسر أحد هؤلاء المهتمدين أحد مبادئ الديانة الإسلامية فإنه في الغالب يعاقب قتلا. ويروي فوس في حادثة كان قد شهدها في فيفري 1595م أن أحد التجار الفرنسيين أعلن دخوله في الإسلام، وبعد أربعة أشهر أدرك حسب فوس أنه ارتكب خطأ فادحا بتركه ديانة المسيح واتباعه دين محمد (صلى الله عليه وسلم) "المزيف". وأمام الشك الذي اعتراه حاول الهرب في إحدى الليالي لكن تم الإمساك به وأمر الداي بإعدامه.

لكن نظرة سريعة معمقة تثبت أن مشكل "اعتناق" الإسلام أصبح ظاهرة تؤرق الكنيسة، ولهذا جاءت الكتابة ضد الإسلام كدين شرير أمرا فرضه الوضع الجديد، وخلقت المتغيرات السابقة حتمية للكتابات التراكمية. إن عمليات "التحول" إلى الإسلام التي كان يشهدها العالم المسيحي عامة والمجتمع الإنجليزي بالخصوص، دفعت كتاب المسرحيات والشعراء؛ إلى تصوير الجحيم الذي ينتظر "المرتد" عن المسيحية؛ ففي كلا الحالتين فإن المتحول سيعاني؛ ذلك أن التغيرات الروحية الحاصلة ستدفع المتحول إلى العودة للمسيحية، "وإذا حدث هذا فسيحمرُّ حيا"⁽¹⁵⁾، أو يرمى إلى الأسفل من أعلى أسوار المدينة على عقاقات حديدية⁽¹⁶⁾ تمسك بعظام الحنك والأضلاع، أو بأجزاء أخرى من الجسم" حسب ستيفن ويلسن. (ويلسن، 2007: 216) وسيعاقبه الرب المسيحي لارتداده. (Matar, 1989, 492).

يبدو فوس متناقضا في طرحه السابق إذا انتقلنا في السياق التاريخي الذي طرحه، فحسب فوس فإن "المريض يمنع من العمل في حالة اشتبه بأنه مريض، ولا يخرج من المستشفى إلا وقد شفي تماما حيث يكون محاطا بحماية الأطباء والآباء المسيحيين". ويرى في رواية أخرى أنه إن صادف وتوفي بالجزائر أحد المسيحيين لا يدفن في المدينة ويتم إبعاده لأكثر من كيلومتر ونصف ليرمى على ضفاف البحر، واستمر العمل بهذا القانون حتى بدايات القرن السابع عشر، عندما ضرب الطاعون المدينة وساهم في مقتل الكثير من المسيحيين ما جعل أحد القساوسة يشتري إحدى القطع الأرضية المقدرة بحوالي هكتار ويخصصها لدفن المسيحيين، لكن الطاعون توقف ومن مساوئ الصدفة أن القس أول من دفن بها، ويرى فوس مستنتجا أن القس السابق يعتبر أول مسيحي دفن داخل مدينة الجزائر منذ نشأتها.

وبالنسبة له فإن المساجد مبنية بشكل لائق وجيد، ويقدر عددها بحوالي 65 مسجدا منها عشرة كبيرة، تسمى مساجد المرابط، وتنسب إلى الشيخ المرابط، تعتبر مقدسة ولا يسمح بملاحقة أي مجرم داخلها مهما كان الجرم الذي اقترفه صاحبه كبيرا. ويسمح لأي مسلم Turk باللجوء إلى المساجد التي دفن بها مرابط أو رجل مقدس، أما إذا لجأ إليها مسيحي فإنه يعاقب بأن توضع في رجله سلسلة مزودة بكتلة يجرها طيلة فتر أسره، وبالنسبة لليهودي فإن صادف وتم إمساكه أمام باب إحدى المساجد (المدفون بها أحد المرابطين) فإنه يحرق حياً أو يصلب، ولهذا يعتقد فوس أن ذلك "المسكين اليهودي Israelite" ليس له أي أمل في النجاة من العقوبة.

وعندما يظلم أسير من قبل أحد الأتراك، العرب، الجزائريين المهتدين، الكراغلة أو اليهود، فهناك سلسلة ببوابات قصر الداوي، له الحق في إمساكها والصراخ بأنه يريد العدالة، فيسأله أحد حراس الداوي عن الخلل وعن الفاعل، وتطبق العدالة فوراً في حقه، لكن إن اكتشف أنه كاذب فالجلد مصيره، وتفرض نفس العقوبة على اليهود.

2-2- الدين والأعراف:

أثنى فوس على نظافة الجزائريين بقوله: "يقضي الجزائريون معظم وقتهم في التدخين، الإستحمام وشرب القهوة"، وحسبه فإن الدين الإسلامي يأمر المسلم بالإستحمام أربع مرات في اليوم، وهناك من يستحم أكثر من عشرة مرات يوميا بداعي الإستمتاع فقط، وبالمدينة حمامات يُسمح للنساء بالتردد عليها مساء، ومن النساء من لديهن حمامات في بيوتهن تعفهن من الخروج من المنزل. ولا توجد بالشوارع نساء كثيرات ماعدا بعض العجائز أو "الموميسات" ولا يخرجن إلا وهن متحجبات.

وعندما يتعلق الأمر باللغة فإن الجزائريين يتحدثون بلهجة تجمع بين العربية، المورسكية والفينيقية القديمة؛ أما المعاملات داخل المدينة فتتم بلغة الفرنكا، وتكون التسجيلات التجارية باللغة التركية العثمانية.

يحق للرجال الزواج من أربع نساء -يستخدم مصطلح شراء purchase للتعبير عن تعدد الزوجات-؛ لكن الغالبية تكتفي بالزواج من اثنين أو ثلاثة. وحسب فوس فإن الرجل لا يرى زوجته قبل الزواج ويكتفي بوصف والدها له، وإذا لم تملك والدا فيقوم بالدور أحد أقربائها، وبعد حدوث التوافق بين الطرفين، يقوم الزوج بشراء زوجته -يقصد المهر- مغرقا أهلها بالهدايا المتمثلة في "الفواكه والوجبات وكذا الآلات الموسيقية".

تكلّف قبل الزواج بأيام أربعة نساء بمرافقتها والتكفل بها، ولا تحدث الزوجة إلا والديها أو النسوة الأربعة، وتقوم نفس النسوة يوم زفافها بزف الزوج إلى زوجته، بإمساكه من يده -يكن محجبات- وجلبه أمام زوجته الجالسة على أحد الكراسي، تقبل بعدها الزوجة يد ورجل زوجها كدليل على "الخضوع Obedience" لترافقه بعدها إلى بيته. وتزغرد Shouting Out النساء الحاضرات في الحفل ملاً حناجرهن وهن يجبن الشوارع.

يمنع ارتداء اللون الأخضر لغير المسلمين ذلك أنّ اللباس يعتبر مقدسا "لرسولهم" -يقصد الرسول عليه الصلاة والسلام-، ويرتدي الشرفاء عمامة خضراء تميّزهم عن الباقي نتيجة لنسبهم الشريف الذي يعود إلى آل البيت. يشم -الوشم- الجزائريون جباههم، لحاهم وأنوفهم بالحبر الهندي، ويخطون ظهر أيديهم وأصابعهم باللون الأسود، أمّا أظافرهم فتلون باللون الأحمر.

يقسم فوس الجزائر إلى عدة أعراق مرتبا إياها حسب تأثيرها وأهميتها، فيعتقد أن الأتراك هم أعلى طبقة كونها الطبقة الحاكمة والمتحكمة في زمام أمور البلد؛ أما الطبقة الثانية من ناحية الأهمية فهم الكراغلة -المولودون لأب تركي وأم جزائرية-، يليهم العرب الأشراف ذو النسب العلوي، ويأتي في المرتبة الرابعة المورسكيون القادمون من الأندلس، وحسبه فالمهندون يأتون في مراتب متدنية في المجتمع مرجعا ذلك لاحتقارهم من قبل الأتراك نتيجة تخليهم عن المسيحية، وفي المراتب الدنيا الأسرى المسيحيون واليهود.

وكرر فوس نفس نظرة الرحالة والأسرى عندما اعتبر الجزائريين "كسلاء، ملعونون بكل رذائل الجنس البشري، ضالون، غيورون، وصورة للجهل المطبق، يلقبون أنفسهم بالمسلمين أو المؤمنون الحقيقيون..."، ويواصل: "إنّي لأختلف اختلافا تاما مع المؤرخين الإسبان الذين يرون فيهم رجالا

بسلاء، وأراهم مجرد جبناء مثل الإسبان أنفسهم". إن نظرة فوس السابقة تعتبر نموذجاً لنقل يكاد يكون حرفياً لما يمكن أن نسميه "سياق الحدث": ففي سنة 1806م نقلت ماريا مارتين حرفياً نفس النظرة التي كان قد نقلها فوس عن السابقين من أبناء جلدته، فتصف الجزائريين بقولها "كسلاء، ميالون للراحة، ملعنون بكل رذائل الجنس البشري؛ شكاكون، كذابون، غيورون، وصورة شديدة للجهل. يعتبرون أنفسهم مسلمين، أو المؤمنون الصادقون، ولا توجد كلمة أصدق من كلمتهم".⁽¹⁷⁾

كان مستوى الأسير في الغالب متدني، ما يجعل كتاباته سطحية وموجهة لخدمة أغراض دعائية أكثر من تلك الأعمال التي خلفها الرحالة. يؤكد ستيفن ويلسن جيمس في عمله التاريخي عن الأسرى الأمريكيين بالجزائر: "يضيّع كلا الجنسين وقته في الكسل، بالنسبة للرجال فهم يقضون وقتهم في احتساء القهوة والتدخين، أما النساء فيقظن وقتهم في الخياطة والإغتسال...".⁽¹⁸⁾ لم يستخدم ستيفن كثيراً مصطلح Turk في عمله كغيره من الأسرى، ولكن عندما كان يستخدم ذلك المصطلح فإنه كان يقصد به العثمانيين بشكل عام، حيث تزامنت كلمة Turk دائماً في البناء السياقي لعمله مع مصطلحات مرادفة هي "الأتراك كسالى Lazen ، خاملون Indolence...ولهذا فقد رسم ستيفن القهوة كمشروب يعبر عن عادة تركية ترادف "الإنسان التركي الكسول"، وأعطى صورة نمطية للأتراك الجزائريين، عبّر عنها في جمل كالآتي: "يقضي الأتراك معظم وقتهم في التدخين وشرب القهوة والخمول"، "يقضي الأتراك معظم وقتهم في المقاهي يرتشفون القهوة، ولا يخصصون أي وقت للقراءة كي يحسنوا من تفكيرهم...".⁽¹⁹⁾ وللمطابقة فإن المقهى طالما عبّر عن مكان للثروة وتناقل الأخبار بالنسبة للرحالة؛ أكثر من كونه مكاناً لتبادل الأفكار، وتصف الأنسة ماري ورتلي مونتافي Lady Mary Wortley Montague الحمام مشبهة إياه بالمقهى—نقلت ما أورده بلونت في رحلته التي سبقت رحلتها بقرن:- "إن الحمام هو المقهى الخاص بالنساء أين يتم تناقل الأخبار والثروة".⁽²⁰⁾

ويعتقد فوس أن القرآن ذكر أنّ أي "مسلم يموت - وهو يقاتل ضدّ المسيحيين، يدخل الجنة مباشرة، ووعدهم أن خيولهم سترافقهم إلى الجنة ليستمتعوا بالركوب عليها هناك كما كانوا يفعلون على الأرض"، ونفس الجملة نقلتها ماريا مارتين عن فوس، عندما قالت: "لقد أخبرهم نبيهم في قرآنه، أن كل من يموت وهو يقاتل ضدّ المسيحيين، يدخل الجنة مباشرة، ليس هذا وحسب،

ففي حالة الوفاة في معركة ضد المسيحيين، فإنهم ينقلون ومنازلهم إلى الجنة"، ونلاحظ إذ نحن أمعنا النظر أن ماريا مارتين وهي تنقل الجملة السابقة استخدمت مصطلح منزل، ولنعتمد -كرأي شخصي- أن النقل حدث سهوا؛ فاستخدمت مصطلح منزل Houses وهو مشابه للمصطلح الذي وظفه فوس خيول Horses. إن ما يجعل الأمر أكثر تعقيدا تراكم المعلومات الخيرية خدمة لأغراض كنسية، ما ينتج عنه ذوبان هذه المعلومات في الكم الهائل من النقل الذي طغى على مثل هذه الكتابات.

الخاتمة:

يمثل ما قدمناه شرذات من عمل يحتاج المزيد من التعمق والدراسة من مؤرخين جادين وأكفاء منهجيا، ولسنا ندعي ونحن نختم هذا العمل أننا غطينا الدراسة؛ فما نعتقده أن ما عالجنه لا يعدو أن يكون تقديمًا سطحيًا جاء بهدف التعريف بالموضوع للباحثين. وانطلاقا مما سبق جاءت الخاتمة لتضم مجموعة نتائج رأيناها كوجهة نظر خاتمة للعمل:

- أثبتت مواعظ رجال الدين والرهبان وكتابات الأسرى كيف كان مهما بالنسبة للكنيسة إعادة تشكيل الرأي العام وإظهار الإسلام في أسوأ حالته، لإبعاد الأمريكيين عنه، ولهذا فقد كان الأمر مرعبا بالنسبة لرجل الدين المسيحي أن يرى المسيحيين يعتنقون الإسلام تواليا؛ كتب جورج سانديس *George Sandys*: "لقد رأينا نوعا من المسيحيين... رموا قبعاتهم بعيدا، ورفعوا سبابتهم عاليا، وفضلوا أن يصبحوا مسلمين *Mohamatean*، إنه مشهد مخيف، أن ترى هؤلاء البؤساء قد تخلوا كل حياتهم عن المسيح".

- وفي المقابل فإن السلطة السياسية إنما دعمت هذه الكتابات لهدف إبعاد الأمريكيين عن المشاكل التي كانت تتخبط فيها أمريكا المستقلة حديثا...

- لم تكن مذكرات جون فوس لتخرج عن النمطية الأوروبية الأم في الترويج لفكرة الرفض للآخر والعمل على خلق عدو إيديولوجي يسمى الإسلام.

الإحالات والهوامش :

- 1 - ينظر: John Martson, The Wonder of Women (1606)
- 2 - Edward Hall, *The Silent Language*, 1905.
- 3 - كوتن ماثر: (1627 - 1727)، كاهن كنيسة بوسطن الشمالية (القديمة)، الابن الأكبر للكاهن الانجليزي المشهور إنكريز ماثر، وحفيد المنظرين الروحيين للمستعمرة ريتشارد ماثر وجون كوتن، ولد ماثر ببوسطن، ودرس بهارفرد، حصل على درجة الليسانس سنة 1678، ثم درجة الماجستير 1681، وحصل على دكتوراه شرفية في علم اللاهوت من جامعة غلاسكو 1710. كان ماثر يؤمن بالسحر. في سنة 1688، حقق في التصرفات العنيفة لأربعة أطفال، لبناء mason من بوسطن يدعى جون غودوين (John Goodwin)؛ فالأطفال كانوا يبكون فجأة مع بعض على شكل أغنية. واستنتج في الأخير أن مشاكل الأطفال ناجمة عن سحر، مورس من قبل ساحرة أيرلندية تدعى ماري غلوفر (Mary Glover). ينظر: "Mather Cotton", *The Encyclopædia Britannica*, op.cit.
- 4 - قرياش بلقاسم، الأسرى الأوربيون في الجزائر خلال عهد الدايات 1671 - 1830، أطروحة في التاريخ مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث، جامعة معسكر، 2016، ص120.
- 5 - Baepler Paul Michel, "The Barbary Captivity Narrative in American Culture", *Early American Literature*, Volume 39, Number 2, 2004, p.219-220.
- 6 - Ibid, p231.
- 7 - Ibid, 217-218.
- 8 - قرياش بلقاسم، المصادر الأمريكية نموذج جديد لكتابة تاريخ الجزائر العثماني 1776 - 1830 م، مجلة الدراسات التاريخية، ع 20، جوان 2015، ص177.
- 9 - لقد أنجزنا الورقة البحثية السابقة اعتمادا على الطبعة الثانية 1598م ليس اعتبارا لأهميتها بل لأنها النسخة التي توفرت لدينا، ونعتقد -وهذا رأينا الشخصي- أن النسخة الثانية لم تختلف عن الأولى كثيرا خاصة من ناحية مادتها الخيرية، وإنما اختلفت من ناحية التنقيح والتصحيح المنهجي لبعض العشوائيات التي رآها صاحبها غير مهمة.
- 10 - Foss John, *A Journal of the Captivity and Sufferings of John Foss several years a prisoner at Algiers; together with some account of the treatment of Christian slaves when sick: and observations on the manners and customs of the Algerines*. 2nd ed. Pub. according to act of Congress, Newburyport, 1798 (Preface).
- 11 - Ibid, p75.
- 12 - Thomas S Kidd, *American Christians and Islam...*, Princeton University Press, Oxford, 2009, p22.
- 13 - Ibid, p11.
- 14 - Foss John, *A Journal of the Captivity...*, op.cit, p32-33.
- 15 - يجرم: يجرق حيا.
- 16 - عبارة عن سلسلة حديدية خفيفة، توضع في الرجل كدلالة على أن الشخص الذي يضعها أسير. لكن الكتاب الأوربيين حاولوا أن يظهرها أن السلسلة ضخمة، تمنع الأسير من المشي.
- 17 - Maria Martin, *History of the captivity and sufferings of Msr. Maria Martin*, Boston, Printed for W.Crary, 1807, p49.
- 18 - Stevens James Wilson, *An Historical and Geographical Account of Algiers*. Philadelphia: Hoagan & M'Elroy, 1797, p.143.
- 19 - Stevens James Wilson, op.cit, p.212.
- 20 - Sascha Ruediger Klement, (2013), *Representations of Global Civility: English Travellers in the Ottoman Empire and the South Pacific, 1636-1863*, Thesis for the degree Doctor of Philosophy in English University of Exeter, p.38.